الأدب الشعبي: المفهوم والوظيفة.

د. عيسى بوفسيو.
جامعـــة محمد بوضياف بالمسيلة–الجزائر–

1- مفهوم الأدب الشعبي:

شاع في ثقافتنا العربية منذ منتصف القرن العشرين مصطلح فولكلور (Folklore)، ذلك المصطلح الإنجليزي الذي استخدمه العالم الإنجليزي جون وليام توموز (W.J.Thoms) سنة 1846، في خطاب وجهه لمجلة ذي أثينيوم (The Athenaeum) البريطانية كمحاولة علمية من جانبه لتحديد مفهوم ما كان يعتني به علماء الأثريات، والمهتمون بالآداب الشعبية واللغة واللهجات، وكذا دارسو الثقافات الشعبية، وما يرتبط بمواد التراث الشعبي التلقائي، من بقايا الأساطير والحكايات الخرافية، وما يرتبط بذلك من أشكال الممارسات الطقوسية، وأشكال الإبداع الفني الشعبي الشائع في الحياة اليومية الجارية مما له أصول قديمة موروثة.(1)

كما شاع أيضا بعد ذلك مصطلح فولكلور كمصطلح يدل على مواد الأدب الشفاهي للأمة، وعلى الأغاني والموسيقى، وعلى مختلف أشكال الإبداع الفني الشعبي بعامة؛ سواء أكانت وسيلة هذا الإبداع الكلمة المصوغة شعرا أم نثرا، أم كانت وسيلة التعبير النغم والإيقاع في فنون الموسيقى الشعبية، وسواء أكانت هذه الموسيقى مصاحبة للحركة الإيقاعية، أم للكلمة المغناة أو موسيقى خالصة للاستماع الفني.

كما شمل التعريف أيضا وسائل التعبير الدرامي والمسرح الارتجالي والاحتفالات الطقوسية، سواء ما ارتبط منها بموروثات أسطورية أو معتقدات خرافية، مثل حفلات الزار وغيرها، أو ما ارتبط بمناسبات دينية في الأعياد والاحتفالات الموسمية.(2)

كما اشتمل كذلك مصطلح فولكلور على وسائل التعبير التشكيلية والفنون التطبيقية ذات القيمة الجمالية، من نقوش وزخرفة وصور جدارية وتراكيب لونية وأدوات الزينة والحلي وقطع الأثاث المطعمة بالصدف أو المنقوشة، إلى غير ذلك من أشكال فنية لقطع الفخار والأواني الزجاجية، مما هو شائع في الحياة اليومية إلى غير ذلك من فنون التشكيل والزخرفة والنسيج والتطريز.(3)

كما احتوت المواد الفولكلورية فنون ألعاب الأطفال، ومهارات الفروسية وكل مظاهر النشاط

الإنساني، مما له قيمة جمالية وطبيعة فنية.[4]

وفي مجتمعنا العربي شاع أيضا مصطلح (الفنون الشعبية) أو (الفن الشعبي) كمصطلح عربي دارج يدل على مصطلح الفولكلور بدلالاته العلمية والواقعية كما يدل كذلك على مختلف أشكال الإبداع الشعبي، الفكرية والمادية والوجدانية باعتبار أن الفن بإطلاقه، هو القدرة على التعبير بمختلف وسائل التعبير الفنية.

وكذلك باعتبار أن هذه المواد التعبيرية هي موروثات ثقافية، تتناقلها الأجيال من الأجداد إلى الأحفاد في تواصل ثقافي حي، وهي موروثات ثقافية تتغير أو تتبدل أحيانا بطبيعتها الحية، تبعا لتغير الظروف التي تحيط بكل جيل، وتحيط أيضا بظروف ومناسبات استخدامها، ولكن مع تغيرها وتبدلها تظل عناصرها الأساسية ثابتة ومحورية، كمركز وأساس لأشكال الإبداع الجديدة.[5]

فالفنون الشعبية بعناصرها الأصلية تكون هي المخزون الثقافي الكامن في وعي الإنسان في تتابع أجياله، وتكون أيضا بتواصلها الحي، هي الركيزة التي تحدد شخصية المجتمع أو الشعب مع تتابع أجياله.[6]

وربما هذا هو السبب الذي أدى إلى ظهور مصطلح التراث الشعبي في ثقافتنا المعاصرة كمصطلح يدل على مواد التعبير المتوارثة الحية والمعاشة، بل اصطلح أيضا على استخدام "التراث الشعبي الحي" كتأكيد لهذه الحيوية، باعتبار أن عناصر من هذا التراث تضرب من عمر الزمان إلى أكثر من ألفي عام، أو تمتد في أصولها الحضارية إلى ما هو أبعد من ذلك.[7]

ومع تحليل المواد التي يدل عليها هذا المصطلح أقر مجمع اللغة العربية مصطلح المأثورات الشعبية، كترجمة دقيقة للمصطلح الأعجمي فولكلور، باعتبار أن مواد المأثورات الشعبية تتمتع بالبعد التاريخي والحيوية والاستمرار في آن واحد، وهو ما يميزها عن غيرها من مواد التراث مما قد كان ولا يكون حاليا، فمن التراث ما كان شائعا في عصر ما ثم اندثر أو تبدل، ولم يعد له وجود حي في حياة الناس، في حين أن المأثورات تتميز بالحيوية والانتقال بمضامينها؛ بل وفي معظم الأحوال بأشكالها الأساسية عبر الأجيال.[8]

ومع تنوع هذه التعاريف أو المصطلحات العربية لمصطلح فولكلور، ومع الحركة العالمية للاهتمام بموضوعات، ومواد الفولكلوريين بين مختلف الشعوب، كأثر من آثار الاهتمام الرومانسي بحياة عامة الناس، للحفاظ على الذات والإبداعات الإنسانية أمام حركة التطور الصناعي والكم الآلي الكبير، نشطت اتجاهات فنية وعلمية في حياتنا المعاصرة، منها ما اهتم بالفنون التعبيرية وتكوين الفرق الشعبية، تقدم لوحات غنائية وراقصة وبأزياء شعبية، وألحان مستلهمة أو مؤلفة على نسق الألحان

الشعبية الأصيلة، أو بتقديم عروض فنية أصيلة، تجمع الفنانين الشعبيين على خشبة المسرح، أو بالمزج بين هذه الفرق بأصالتها الفنية، مع العروض المستحدثة، كمحاولة إعلامية لتأكيد شعور الأمة وكذلك لتأكيد الدور الخلاق للمجتمعات العربية في المحافظة على مقومات شخصيتها وهويتها وكظاهرة فنية تؤكد الدور الإبداعي للإنسان في هذه المجتمعات إزاء حملات الاستعمار العسكري والسياسي أو الغزو الثقافي المخطط له مسبقا.(9)

ولقد حققت تلك الجهود الواعية الفنية والرسمية دورها الفعال في إزالة كثير من مظاهر الغزو الثقافي والفني للبلاد العربية، وبخاصة ما كان مدعوما بغزو استعماري عسكري، فبمجرد أن انزاحت الغمة الاستعمارية وملكت الدول العربية إرادتها بيدها، بزغ الاهتمام الواثق بقدرات الشعب العربي الإبداعية.(10)

مع هذه الجهود الفنية كان جهد آخر يواكبها ويسبقها أيضا، وهو الجهد العلمي الذي بذله عدد من أساتذة الجامعات العربية، وتزخر المكتبات العربية بدراساتهم العلمية في الكشف عن مقومات ومميزات وقدرات الإنسان العربي في التعبير عن رؤيته الفنية لواقع الحياة، ومهارته الفكرية والفنية في صياغة حياته صوغا جماليا، والتعبير عن ذلك بمختلف أشكال التعبير، فكانت حركة الاهتمام العلمي بهذه القدرات الإبداعية المتوارثة، مركزها الجامعات العربية، وكانت رسائل الماجستير والدكتوراه منذ أكثر من أربعين عاما، تتناول موضوعات من التراث الشعبي، سواء كان ذلك يرتبط بالسيرة الشعبية مثل السيرة الهلالية أو القصص الشعبي مثل حكايات ألف ليلة وليلة، أو بالأمثال، أو بالأغاني الشعبية، والمكتبة العربية تضم العديد من الدراسات الأكاديمية، والكتب العلمية.(11)

وقد واكب الجهدين السابقين، الفن والدراسة الأكاديمية جهد آخر لجيل واع من الفنانين المحدثين استلهموا موضوعات التراث الشعبي والمأثورات الشعبية في أعمال فنية جديدة في مجال التأليف المسرحي والقصصي واللوحات الفنية وأعمال النحت التي تصور جوانب من الحياة اليومية للإنسان.(12)

هذه الجهود الجادة الواعية كان لها أكبر الأثر في تحويل مسار الثقافة العربية المعاصرة، فقد فجرت هذه الجهود منابع جديدة للتعبير الفني والفكري، وأعادت للإنسان العربي ثقته بنفسه؛ بل فتحت أمامه باحات جديدة يطل بها ويخرج من خلالها أيضا إلى الإنسان في كل مكان في العالم، ويقدم للإنسانية؛ بل وللحضارة المعاصرة رؤية جديدة وأصيلة تكشف عن قدرات الإنسان في صنع الحياة داخل مجتمعه وخارجه.(13)

وإذا تأملنا هذه الجهود سنجد أنها في حقيقتها لم تكن صدى للحركة العالمية للاهتمام

بإبداعات الشعوب وتراثها الحي أو مأثوراتها المعاشة؛ بل سنجد أنها مع الحركة العالمية لفتت أنظار الشعوب العربية إلى أصولها الحضارية وما تتضمنه كتب تراثها من اهتمامات واعية وجادة بواقع الحياة اليومية؛ فشعراء الجاهلية لم يغفلوا في شعرهم مظاهر الحياة الفنية، فطرفة بن العبد في مطلع معلقته يصور وشم اليد وبعض الألعاب(*) التي مازالت شائعة إلى يومنا هذا، وإذا قرأنا شعر الجاهلية قراءة جديدة على ضوء مفهوم دراسات المأثورات الشعبية أو التراث الشعبي، سنجد كثيرا من صور الحياة اليومية القديمة التي لا زالت لها آثارها في ممارساتنا اليومية المعاصرة، كما أن كتب المؤرخين والرحالة والجغرافيين تزخر بموروثات ثقافية لها وجودها حتى الآن. (14)

بل إن الاهتمام بالتراث الشعبي بمفهومه الحديث في الدراسات الفولكلورية له أصوله الثابتة في دراستنا العربية، قبل أن يظهر مصطلح الفولكلور في الحياة الغربية والأوربية بخاصة، ولن نبالغ إذا قلنا وقبل أن تنتبه الدراسات الأوربية إلى هذا الموضوع الهام من مواضيع الكشف عن ثقافات الأمم. (15)

فلقد التفت المفكرون والأدباء والفنانون العرب القدامى منذ ألف عام وأكثر إلى أهمية أشكال الإبداع الشعبي، والموروث الثقافي في مكونات الثقافة العربية، ومن رواد ذلك الجاحظ على سبيل المثال (775-868 هـ) الذي يعتبر من النماذج الأدبية المتميزة في تراثنا، التي ساهمت في إنشاء الصيغة الأدبية للمادة الفولكلورية، سواء بتسجيله لما في حياة العامة من عادات وتقاليد، أو من تصورات أسطورية عن عالم الجن والغيلان، أو نوادر البخلاء، أو أنماط من السلوك كانت شائعة في عصره، أو وصف أنماط من العلاقات الاجتماعية التي كانت شائعة بين عامة الناس، كما أن عبد الله بن المقفع (ت 759 هـ) كان أديبا رائدا وعالما فذا من علماء الأدب العربي، لا يزال كتابه (كليلة ودمنة) الذي نقله أو وضعه، له أثر وجوده في التراث الشعبي والعالمي، سواء كانت هذه الحكايات التي تدور على لسان الحيوان من تأليفه أو ترجمة لحكايات هندية، ولا يمكن أن ننسى أو نتجاهل بهذا الصدد كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (897-967هـ) الذي يقف شامخا بين الدراسات الإنسانية العالمية بغزارة مادته ووعيه الحضاري لمكونات الثقافة العربية والاجتماعية في عصره، سواء بما يتضمنه هذا العمل العظيم من وصف لمجالس الغناء والطرب، وما يحوط هذه المجالس من أنماط السلوك والمناسبات العامة.

وقد كان منهجه في تقصي المعلومات وسردها، أساسا لأي منهج عربي حديث في جمع مواد المأثورات الشعبية. (16)

وهناك الكثير من المفكرين والفلاسفة والأدباء الذين اهتموا بأنماط الثقافة العامة والشعبية الشائعة في عصورهم، ولا حاجة لنا أن نذكر هنا ابن خلدون (1332-1406هـ) الذي يعتبر

رائدا من رواد الدراسات الفلكلورية في العالم، وليس مؤسس علم الاجتماع فحسب، فالمنهج الذي استنه ابن خلدون في دراسته للحياة الاجتماعية، ورصده للتغيرات الثقافية التي تحدث في المجتمعات نتيجة الانتقال من حالة اجتماعية إلى أخرى، يمكن أن يكون أساسا علميا سليما لوضع أسس نظرية جديدة في مجال الدراسات الشعبية. (17)

ومن خلال الدراسات العلمية المتأتية لمأثوراتنا الشعبية يمكننا الاستدلال على مجموعة من المقولات والمفاهيم الفكرية والاجتماعية، التي تشكل بنية الثقافة العربية، فمثلا يمكن الكشف عن مفهوم الخير أو الشرف أو الأمانة، والحق والجمال، ومفهوم الحرب والسلم، والصبر والاحتمال، والموت. إلى غير ذلك من أحكام القيم التي تشكل أنماط سلوكه، كما يمكننا إدراك البواعث والعوامل الدافعة للإبداع وأسسه النفسية والفكرية، باعتبار أن الإبداع الفني للمجتمع هو في حد ذاته تعبير عن مجموعة القيم والمقولات الفكرية التي يعايشها المجتمع وتحكم أنماط سلوكه. (18)

2- مناهج دراسة الأدب الشعبي:

المعروف أن الفولكلور يستهدف دراسة الجانب المادي والروحي عند الشعوب، ولهذا نلاحظ أنه مع بداية هذه الدراسات تعددت المدارس والمذاهب واختلفت الآراء، ولعل ذلك يرجع إلى بعض الظروف التاريخية والاجتماعية التي مر بها هذا العلم والخلفيات الثقافية لروادة، وبمرور الوقت أصبحت هذه الدراسات تعبر عن مناهج واضحة من أبرزها ما يلي:

أ- المنهج التاريخي:

ويعتبر المنهج التاريخي في دراسة الأدب الشعبي من أقدم المناهج، ذلك لأنه يرتبط منذ بدايته بالدراسات الأدبية واللغوية، وهو يفيد في تعقب أصول بعض النصوص الشعبية، والربط بينها وبين الظروف المتغيرة التي مر بها. وهذا النمط من الدراسة يساعد على معرفة أوجه التماثل أو الاختلاف بين النصوص الشعبية في الأزمنة المتعاقبة بغية الوصول إلى إدراك التطور الذي قطعته النصوص، والتعرف على المؤثرات المحلية والأجنبية التي لعبت دورا في تشكل هذه النصوص في مرحلة معينة.

وقد يفيد هذا المنهج في سد الثغرات التاريخية أو إزالة الغموض والتزييف الذي قد تتعرض له أحداث التاريخ، غير أن الغلو في الاعتماد على هذا المنهج قد يشد الدارس إلى تفصيلات تاريخية لمشكلات فرعية في النصوص الشعبية خارجه عن الموضوع. (19)

ومن المفيد استكمالا للنظرة التاريخية الاهتمام بالنظرة الجغرافية.

ب- المنهج الجغرافي:

وأصحاب هذا المنهج يسعون إلى ربط النصوص الشعبية بالمناطق والأماكن التي نشأت فيها، وذلك لأن اختلاف الظروف المكانية تؤثر بشكل أو بآخر على النصوص؛ فالنصوص التي تنتشر في مناطق جبلية تختلف عنها في مناطق ريفية، والنصوص التي ترتبط ببيئة صحراوية، قد تختلف عن تلك التي تشيع في بيئة ساحلية، وتبدو أهمية هذا المنهج بالنسبة للناحية المادية في التراث الشعبي، فأدوات العمل الزراعي، والأدوات المرتبطة بالنشاطات الحرفية، المحلية لا يمكن دراستها إلا من خلال البيئة، وقد تقل هذه الصلة بالنسبة لعناصر التراث الروحي عموما، كالأغاني والأمثال والحكايات، ولا شك في أن المنهج الجغرافي قد أفاد في عرض النصوص الشعبية على الخرائط والصور وأصبح في الإمكان عمل أطالس للمناطق الفولكلورية، ومن هنا فإن الاهتمام أو الاعتماد على منهج واحد في دراسة النصوص الشعبية، قد يؤدي إلى نتائج ناقصة أو خارجة عن الموضوع الأصلي، ومن هنا حث العلماء على ضرورة الربط بين المنهج الجغرافي والتاريخي أي ربط البعد المكاني بالبعد الزماني. (20)

ج- المنهج الاجتماعي:

وأصحاب هذا المنهج يهتمون بالجماعات التي تحمل التراث الشعبي على اعتبار أنه انعكاس لحياتهم، وطرائق تفكيرهم، ومن ثم يتجه العلماء إلى رصد التغيرات التي تطرأ على النصوص بين الحين والآخر، خاصة إذا كانت هناك تحولات اجتماعية كالتغيرات الطبقية أو الهجرة، كما يتوقف أصحاب هذا المنهج كثيرا عند تعريف المجتمع الشعبي الذي يحمل النصوص، حيث يرون أن المقصود بهذا المجتمع هم المجموعة من الناس التي تتمسك بالعادات والتقاليد القديمة، وهم الذين يحملون التراث الشعبي عبر الأجيال دون حاجة إلى تسجيله، ويغلب على هذا المجتمع التلقائية، ويتحكم فيه الماضي أكثر من الحاضر، ويتهيب الجديد ولا يأخذ به إلا بعد جهد حتى يتوافق مع سلوكه وعاداته وتقاليده. (21) ومن المفيد كذلك واستكمالا للنظرة الاجتماعية، الاهتمام بالنظرة السيكولوجية، أي المنهج السيكولوجي.

د- المنهج السيكولوجي:

ويهتم أصحاب هذا المنهج بحامل الثقافة الشعبية، ويحرصون على تحديد موقفه العقلي والنفسي من المجتمع، ولذلك فهو يرتبط بالمنهج الاجتماعي، وكلاهما يكمل الآخر، بالإضافة إلى هذا يرى أصحاب المنهج السيكولوجي أن دراسة العناصر الشعبية، إنما هي وسيلة لغاية أخرى هي معرفة الإنسان، ولكن ما يؤخذ على هذا المنهج هو مغالاة أصحابه في البحث عن أعماق الإنسان، وهو ما يؤدي إلى تحول الدراسة، إلى دراسة سيكولوجية، تبتعد عن دراسة النصوص الشعبية ذاتها، وهو ما

يفقدها أصالتها وطرافتها.[22]

هـ- المنهج البنائي:

أما المنهج البنائي فقد شمل في العصر الحديث كافة فروع العلم والمعارف الإنسانية، وهذا المنهج يعتمد على بعض الجوانب الإحصائية، كاستخدام الرسوم البيانية وبذلك تتحول الأفكار الإنسانية إلى أرقام ورموز على غرار العلوم الرياضية والتجريبية، وقد دخل هذا المنهج في الدراسات الشعبية على يد فلاديمير بروب (Vladimir Propp) في كتابه (مورفولوجية الحكايات الخرافية) ونقل إلى اللغات الأوربية عام 1968، واتسع نطاق استخدامه في مجال الدراسات الشعبية، حتى أصبح التحليل البنائي عند بعض العلماء هو أساس الدراسة الشعبية، وأصحاب هذه الدراسات يعرفون المنهج البنائي بأنه المنهج الذي يتعرض لدراسة الشكل بوصفه كلا بعد تحليله إلى أجزائه الصغيرة، بهدف وضع هذا الشكل في التصنيف الملائم له، وعلاقته بالمناخ الحضاري السائد.[23]

والواقع أن الإغراء في تحويل الأفكار الإنسانية إلى رموز وأشكال وأرقام سيفقدها لذتها وطرافتها، ثم أن النفس الإنسانية ليست مادة محدودة المعالم والأبعاد مثل العلوم الرياضية، بحيث يمكن ضبط الظواهر المرتبطة بها، ولكن النفس الإنسانية عبارة عن شيء بالغ التعقيد والغموض.

وليس معنى ذلك أننا نرفض الإفادة من نتائج العلوم التجريبية في مجال الدراسات الإنسانية، ولكن ينبغي أن تكون هذه الإفادة في نطاق محدود، هذه هي أبرز المناهج والاتجاهات في الدراسات الشعبية، بيد أن التركيز على إحداها قد يؤدي إلى الشطط، أو الخروج عن الموضوع، فالدراسة الشعبية ترتبط بشكل أو بآخر بكل هذه الاتجاهات، وعلى الدارس أن يوجه دراسته طبقا لظروف النص وطبيعته، وأن يفيد بكل ما يستطيع من طرائق المناهج السابقة، دون تلفيق أو افتعال أو مبالغة.

3- مميزات الأدب الشعبي:

المعروف أن الأدب الشعبي هو الأدب الذي انتقل شفويا خلال عصور التاريخ بين الفئات الشعبية، دون تدخل من جانب المثقفين كما أن اللغة التي ينتقل بها هذا الأدب هي لغة الفئات الشعبية التي ارتبطت بالقطاعات الشعبية، ومن مميزات هذا الأدب الشعبي ما يلي:

أ- العراقة (الأصالة):

لقد ارتبط التراث الشعبي بالإنسان منذ العصور الأولى، وسجل القدماء بعض المأثورات الشعبية التي ارتبطت بالجماعات البشرية الأولى وكانت هذه المأثورات تفي بحاجاتها الروحية والإنسانية، وقد ظهرت هذه المأثورات مع ظهور اللغة كوسيلة للتعبير، والمعروف أن الإنسان عندما

نظر حوله وشاهد الطبيعة بكل ما فيها من محاسن ومساوئ، حاول أن يعبر عن انطباعاته نحوها، بطريقة تلقائية فطرية، تتفق مع تطوره الفكري، ولهذا فقد اعتبر العلماء أن هذه المأثورات بفطريتها، إنما هي جزء من التراث الشعبي وتستطيع أن تمدنا بالمعارف والمعلومات عن الحياة الشعبية عند الجماعات البشرية في تلك المراحل القديمة، علاوة على ذلك فإن الأدب الشعبي لا يزال يعتمد على الرواية الشفوية والتلقين، وهذه الميزة قد انتهى دورها بالنسبة للآداب الرسمية بعد ظهور الكتابة، والتدوين، بينما ظلت تلازم الأدب الشعبي بحكم فطرته وتلقائيته. (24)

ب- الواقعية:

إن من أبرز سمات الأدب الشعبي هو فطريته وتلقائيته، ذلك لأن التعبير الشعبي لا يخضع للتحبير، أو التجويد العلمي أو الثقافي، ولكنه كما ذكرنا سابقا تعبير فطري، وليس معنى ذلك أنه أدب سطحي؛ بل هو أدب ثقافي يقوم بدور واضح في مجال الثقافة، بما يحمل من مضامين اجتماعية وفكرية، تدل على ظروف المجتمع وطبيعته، دون تعقيدات فكرية أو تأثيرات ثقافية أجنبية غريبة عن المجتمع، ومن هنا يرى الدارسون أن الأدب الشعبي يستطيع أن يعطي صورة واضحة عن المجتمع، لأنه أدب ارتبط بالواقع المعاش، دون زيف أو نفاق، وسجل هذا الواقع بكل ما فيه من سلبيات وإيجابيات، ومن هنا تأتي واقعيته، فهو أدب يقترب من أفكار الفئات الشعبية، ويعبر عنها في قوالب محفوظة، تتكرر كثيرا مع إضافات تقتضيها الظروف، وهذه القوالب منحوتة من الحياة مباشرة دون جمود، لأنها تتغير ببطء شديد، ولو كانت هـــذه القوالب ميتة لانصرف عنها الإنســـان، لأنه بطبعه يمل التكرار وينفر من الجمود. (25)

ج- الجماعية:

من السمات البارزة في الأدب الشعبي أنه مجهول المؤلف، ولهذا فقد لاحظ العلماء اختفاء دور الفرد، وليس المقصود بهذا انعدام دور الفرد في عملية الخلق؛ فالأدب الشعبي في المرحلة الأولى لا بد له من فرد منشئ وهذا الفرد لا يهتم بنسبة النص الشعبي له، ذلك أن دوره منصهر في الجماعة كما أنه عندما ينشئ هذا العمل لا يميل كثيرا إلى الابتكار، ولكنه ينشئ عمله طبقا لنموذج شعبي سابق اشتهر وذاع، كما أن عمله هذا لا بد أن يحمل مضامين شعبية، سواء كانت أخلاقية أو تربوية أو فكرية، وقد يأتي المنشئ أو الراوي بالنموذج الشعبي القديم، ويجري عليه التحويرات المناسبة لكي يتوافق مع الظروف، ولهذا فقد لوحظ اهتمام الجماعة بالنص لا بالقائل، -وقد اختفى القائل- لأن النص أصبح ملكا للجماعة يتوافق مع ذوقها وقيمها، ويشيع بين الناس على اعتبار أن الجماعة هي التي أصدرته،

وهي التي تنشره من ناحية أخرى، ولذلك فإن ارتباط الأدب الشعبي بضرورات العمل وتسجيله لمختلف مراحل العمل، جعله يرتبط بالجماعة، كما أن انتشار العمل الأدبي شعبيا هو الذي يعطيه أهميته الجماعية، وهو لا ينتشر إلا بعد أن يلقى قبولا عريضا، ويمس ضرورات اجتماعية. (26)

د- التداخل (أي تداخل الأدب الشعبي مع الفنون الأخرى):

إن جماعية الأدب الشعبي وارتباطه بضرورات العمل، واتصاله اليومي بقضايا الناس، قد جعله يرتبط بكل النشاطات والفنون الإنسانية الأخرى؛ فهو دائم التسجيل لها والتعريف بها. والمعروف أن النشاط الإنساني متعدد الاتجاهات، يشمل قضايا العمل والمهن من طب وزراعة وفنون حرفية وتجارة، فقد ارتبط الأدب الشعبي بكل هذه النشاطات؛ فكتاب ألف ليلة وليلة لا يقتصر دوره على الحكايات، ولكنه يتحدث عن الطب الشعبي والنباتات والحرف اليدوية، فضلا عن القضايا الاجتماعية، التي ترتبط بالعلاقات كالرقيق والجواري، وفنون الغناء والرقص والتمثيل والعلاقات الزوجية ... الخ، ودارسو الأدب الشعبي لا يقفون عند حدود النص، بل يتخطون ذلك إلى آفاق واسعة تفرضها النصوص، وهي تشمل كل أنواع النشاط الإنساني، ولذلك فقد عد الأدب الشعبي أدبا ملحميا، (27) بل إن فنلندا استطاعت أن تجمع تراثها الشعبي وتبني منه ملحمة كاليفالا (Kalevala) (*) الشهيرة على غرار الإلياذة والأوديسة لهوميروس، وأقامت عليها دراسات متعددة حول الشخصية الفنلندية (28) وفي هذا المجال يقول أحد العلماء "أن الأدب الشعبي يشغل المكانة التي كان يشغلها الأدب الإغريقي القديم حين أدخل أرسطو العلوم الرياضية في الأدب، ونفس المكانة التي كانت لأدب الفصحى العربية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حينما استخدموا كلمة أدب لتدل على جملة المعارف التي تسمو بالذهن والتي تبدو أكثر صلاحية في تحسين العلاقات الاجتماعية وخاصة اللغة والشعر وما يتصل به وأخبار الجاهلية". (29)

4- وظيفة الأدب الشعبي:

لا شك في أن مناهج الفولكلور التي أشرنا إليها سابقا، لم تتجه إلى دراسة هذا العلم لمجرد الدراسة النظرية أو الهواية، ولكنها كانت تهدف إلى استخلاص الحقائق المتعلقة بالشعوب في الماضي والحاضر، واكتشاف الدور الذي يلعبه التراث الشعبي في عمليات تطور المجتمعات وإبراز أصالتها، وقد وجد علماء الشعبيات أن هذه الدراسات يمكن أن تلقى أضواء كاشفة على المراحل التاريخية السابقة، وخاصة تلك المراحل التي افتقدت الوثائق التاريخية، وفي هذا المجال فإن التراث الشعبي يؤدي دورا كبيرا في سد الثغرات التي قد تظهر خلال فترات التاريخ، والتراث الشعبي من هذه الناحية دليل

صادق على المراحل التاريخية التي مر بها الإنسان. (30)

والأصل في الأدب الشعبي أنه يهدف إلى غاية؛ إما ظاهرة مثل تزجية أو قضاء أوقات الفراغ، وهذا حق مشروع للإنسان، يقابل في أهميته العمل والإنتاج، ودور التراث الشعبي في هذا المجال واضح ومعروف، بل إننا نجد أن كل الدول دون استثناء قد لجأت إلى إحياء فنونها الشعبية والاستمتاع بما فيها من تلقائية وطرافة. (31)

أما الغاية الأخرى فربما كانت تعريفا بواقع اجتماعي أو تأكيدا لقيمة خلقية، أو نقدا لعيب اجتماعي أو تسجيلا لحادث عابر، شخصي أو جماعي، ولذلك تعد الآداب الشعبية بحق ملاحم إنسانية إذ نجد فيها تسجيلا أمينا لكافة التيارات الظاهرة والخفية في المجتمع، (32) وخطورة هذا التسجيل وأهميته تأتي من أنه لا يخضع للتوجيه الفردي أو للتوجيه الإداري، ولكنه يخضع للتوجيه الجماعي؛ ذلك لأن الجماعة هي التي تسجله ولها حق الاستمتاع به، أو رفضه إذا لم يتفق مع ظروفها وطبيعة تكوينها، وفي هذا الصدد فإن الآداب الشعبية تختلف عن الآداب الرسمية، ذلك لأن الحوافز لديهما مختلفة، فالأدب الشعبي يستمد مقوماته من الشعب، ثم يقوم الشعب بعد ذلك بترديدها ونشرها، ثم إن الحوافز هنا شعبية، وعلى الأديب الشعبي أن يرجع بين الحين والآخر إلى الشعب ليرى اهتماماته، وهذه الاهتمامات الشعبية هي في الواقع عبارة عن مثل معينة تتوافق مع طباعه، أو يطمح إلى أن تسود بين أفراده، وقد تكون هذه الاهتمامات عبارة عن مشاكل حياتية تأخذ شكلا جماعيا، ومن هنا نجد أن الراوي يركز على هذه الاهتمامات، ومن هذه الاهتمامات أيضا تلك الأفكار الموروثة التي يريد أن يستبقي منها ما يتوافق مع حياته الحاضرة، ويسقط ما لا يتوافق مع ظروفه، والمجتمع في حاجة مستمرة إلى عناصر ثقافية تنبع من داخله تسدد خطاه، أو ترصد بعض الظواهر الموجودة، أو تعكس الحركة الاجتماعية، وليس هناك أقرب إلى طبيعة الشعب من آدابه الشعبية التي يفرزها بين الحين والآخر، ولهذا فإن الأدب الشعبي فضلا عن كونه عامل توثيق تاريخي، فإنه في الحياة الحاضرة يعتبر عامل توجيه وتعليم ولذلك فقد اختفى دور الفرد في الأدب الشعبي، ولم يعد المجتمع يهتم بالقائل أو المنشئ بقدر اهتمامه بالمادة الشعبية. (33)

وقد تنبهت الدول إلى أهمية هذا العلم وخطورته، وحاولت الإفادة منه في شتى المجالات، بل أصبح هذا العلم سلاحا ذا حدين؛ فعندما أحسن استغلاله نهضت على أساسه بعض الدول، وعندما أسيئ استخدامه كان شرا على الدول، مثال على ذلك ألمانيا التي وجهت الاهتمام بالتراث الشعبي في اتجاه العنصرية والاستغلال الطبقي وإثارة النعرة القبلية، وقد أدى ذلك إلى الحروب التي تعرضت لها أوروبا عدة مرات. (34)

ومن ذلك أيضا الدول الاستعمارية كانجلترا وفرنسا وغيرهما فقد اهتمت هذه الدول بالفولكلور في المستعمرات لغرض استعماري، فقد كانوا يبرزون الحلقات السلبية في سلوك المجتمعات المغلوبة كالنفاق، والسلبية والخوف والجهل، من خلال تلك النصوص الشعبية، كما كانوا يكشفون الحلقات الإيجابية، ويحاولون التنبيه إليها والتحذير من دورها، كما حرص علماء الشعبيات في هذه الدول، على أن يضعوا نتائج الدراسات الشعبية في المستعمرات، أمام المسؤولين للاستئناس، بها في مجال الإدارة،(35) وقد وجدنا أثر هذا التراث في الآداب العالمية في العصور الحديثة حيث لجأ كبار الأدباء إلى تلقيح أفكارهم بما في التراث الشعبي من صور وخيال، ولهذا يقول الباحث السوفياتي يوري سوكولوف "... ومن الصعب أن نذكر أي مؤلف بارز – منذ القرن الثامن عشر إلى العشرين–، لم يتجه بدرجة أو بأخرى – مع اختلاف دوافعهم ومبادئهم– إلى الشعر الشفوي على أنه منبع القوالب الفنية واللغة الحية والإيقاعات الفنية".(36) ففي القرن الثامن عشر ظهرت اهتمامات واضحة، خاصة عند بوشكين وجيوجول وموليير وغيرهم، وفي القرن العشرين كثيرا ما نرى أن كل مدرسة أدبية جديدة، يمكن إرجاعها إلى الفولكلور.(37)

وقد تعرضت اللغة الشعبية في داخل بعض الأوطان العربية إلى الانتفاع بها، حيث لجأ بعض الشعراء بدوافع إقليمية أو إيديولوجية أو دينية إلى كتابة أشعارهم باللهجات المحلية بقصد النفاذ إلى الفئات الشعبية، غير أن هذا الأدب العامي ظل محصورا بين فئة معينة، ولم يخرج عن نطاق الأدب الرسمي، لأن هذه الآداب تصدر عن أفراد ولا تحمل حسا جماعيا. أما الدور التربوي الذي يلعبه هذا الأدب فهو واضح ومعروف، ذلك أن جزءا كبيرا من القصص الشعبي، كان موجها للأطفال، فقد لعبت هذه الحكايات دورا كبيرا في إثراء خيال الطفل وتعريفه بقيم المجتمع وتقاليده بطريقة غير مباشرة.(38)

والواقع أن نواحي الإفادة من التراث الشعبي كثيرة ومتعددة، ولهذا اهتمت الدول المتقدمة بتطويره وعرضه في المناسبات العامة والخاصة على اعتبار أنه يمثل الهوية الوطنية، وإذا عدنا إلى عناصر التعبير الشعبية، لنبحث عن الدور الوظيفي في كل منها لوجدنا أن الأمثال الشعبية تساعد على اتخاذ القرارات وتأكيد المواقف.

أما الأغاني الهجائية فهي تنفس عن مشاعر العداوة المكبوتة، والأغاني العاطفية تعبر عن الإحساس بالجمال، والأغاني الفكاهية تعبر عن الإحساس بالإشراق والتفاؤل، أما النوادر فهي تنفس بالأسلوب الساخر عن مشاعر الضيق، أو تهاجم في الوقت نفسه العادات وأنماط السلوك الشاذ.(39)

الهوامش:

1- انظر: الفلكلور ما هو؟ دراسات في التراث الشعبي لفوزي العنتيل، دار الميسرة، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1407 هـ، 1987م، ص: 15-18، 44.

2- المرجع السابق، ص: 23-28، 35-41، 89.

3- المرجع السابق، ص: 28-30.

4- المرجع السابق، ص: 42-43.

5- صفوت كمال، التراث الشعبي وأثره في الثقافة العربية المعاصرة، الدوحة، ع: 102، وزارة الإعلام بدولة قطر، 1404هـ-1984م، ص: 122.

6- المرجع السابق، ص: 123.

7- المرجع نفسه، ص: 123.

8- المرجع نفسه، ص: 123.

9- المرجع نفسه، ص: 123.

10- المرجع نفسه، ص: 123.

11- المرجع نفسه، ص: 123.

12- المرجع نفسه، ص: 123، 124.

13- المرجع نفسه، ص: 124.

(*)- كلعبة المقايل وهي لعبة لا تزال شائعة حتى الآن في بعض دول الخليج.

14- المرجع نفسه، ص: 124.

15- المرجع نفسه، ص: 124.

16- المرجع نفسه، ص: 124.

17- المرجع نفسه، ص: 124.

18- المرجع نفسه، ص: 124.

19- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية، 1993، ص:22ـــ24. وانظر أيضا: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية لنبيلة إبراهيم، دار العودة، بيروت، 1974م، دار الكتاب العربي، طرابلس، ص: 13، 14.

20- المرجع السابق، ص:24ـــ26.

21- المرجع نفسه، ص:27ـــ28.

22- المرجع نفسه، ص:27 وانظر كذلك: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية لنبيلة إبراهيم، مرجع سابق، ص: 133-137.

23- المرجع نفسه، ص:29 ـــ30. وانظر كذلك: قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية لنبيلة

إبراهيم، مرجع سابق، ص:18-44.

24- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1971م، ص: 17-22.

- وانظر كذلك: الأدب الشعبي الجزائري بين النظرية والتطبيق لسعيدي محمد، ديوان المطبوعات الجامعية، ص: 16- 18.

25- المرجع السابق، ص: 22- 24.

- وانظر كذلك: الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق لسعيدي محمد، مرجع سابق، ص: 18-20.

26- المرجع السابق، ص: 24-25 .

- وانظر كذلك: الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق لسعيدي محمد، مرجع سابق، ص: 20-21.

27- المرجع السابق، ص: 25-26.

- وانظر كذلك: الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق لسعيدي محمد، مرجع سابق، ص: 21.

(*)- كاليفالا Kalevala وهي مجموعة قصص شعرية مغناة، جمعها إلياس لونروث Elias Lonnrot.

28- أحمد علي مرسي، مقدمة في الفولكلور، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995، ص: 32-42.

29- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص:26.

30- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، مرجع سابق، ص:11. وانظر كذلك، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق لسعيدي محمد، مرجع سابق، ص: 18.

- وانظر: بحثا عن التراث العربي، نظرة نقدية منهجية، لرفعت سلام، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص: 230-232.

31- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص: 16، 23، 316، 317.

- انظر كذلك: حتى لا يضيع التراث الشعبي في الخليج لبشرى ناصر، مقال في مجلة الدوحة، ع: 73، وزارة الإعلام بدولة قطر، 1402هـ-1982م، ص: 48، 49.

32- نور سليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ص: 192-211.

33- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص: 24-29، 35.

34- أحمد علي مرسي، مقدمة في الفولكلور، مرجع سابق، ص: 28-32.

35- المرجع السابق، ص: 39-42.

36- عبد الحميد بورايو، توظيف التراث الشعبي في بناء الرواية الجزائرية، مجلة آمال، ع: 51-52، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1980، ص: 08.

37- المرجع السابق، ص: 08.

- انظر كذلك: الفولكلور ما هو؟ لفوزي العنتيل، مرجع سابق، ص: 70-88.

38- سعيدي محمد، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، مرجع سابق، ص: 99-100.

- وانظر كذلك: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير لنور سلمان، مرجع سابق، ص: 211-213.

39- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مرجع سابق، ص: 327-355.

وانظر كذلك: حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، مرجع سابق، ص:29 ،118ـ 125. وانظر أيضا: مفردات الحكمة في الشعر الشعبي لمحي الدين خريف، مقال في مجلة الحياة الثقافية، ع:34، وحدة المجلات بوزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1984، ص: 48-51.

<u>المصادر والمراجع:</u>

1- فوزي العنتيل، الفلكلور ما هو؟ دراسات في التراث الشعبي، دار الميسرة، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1407 هـ، 1987م.

2- صفوت كمال، التراث الشعبي وأثره في الثقافة العربية المعاصرة، الدوحة، ع: 102، وزارة الإعلام بدولة قطر، 1404هـ-1984م.

3- نبيلة إبراهيم، قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة، بيروت، 1974م، دار الكتاب العربي، طرابلس.

4-حسين عبد الحميد أحمد رشوان،الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الاجتماع، المكتب الجامعي الحديث، اسكندرية، 1993.

5- أحمد رشدي صالح، الأدب الشعبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط3، 1971م.

6- سعيدي محمد، الأدب الشعبي الجزائري بين النظرية والتطبيق، ديوان المطبوعات الجامعية.

7- أحمد علي مرسي، مقدمة في الفولكلور، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1995.

8- رفعت سلام، بحثا عن التراث العربي، نظرة نقدية منهجية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 1989م.

9- بشرى ناصر، حتى لا يضيع التراث الشعبي في الخليج، مقال في مجلة الدوحة، ع: 73، وزارة الإعلام بدولة قطر، 1402هـ-1982م.

10- نور سليمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.

11- عبد الحميد بورايو، توظيف التراث الشعبي في بناء الرواية الجزائرية، مجلة آمال، ع: 51-52، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1980.

12- محي الدين خريف، مفردات الحكمة في الشعر الشعبي، مقال في مجلة الحياة الثقافية، ع:34، وحدة المجلات بوزارة الشؤون الثقافية، تونس 1984.